الدراسة العلمية للببليوجرافيا الإسلامية..
قراءة فى كتابات شعبان خليفة

إعداد:
د. أحمد عبد الحليم عطية
استاذ مساعد بقسم الفلسفة
آداب القاهرة

أثناء مراجعتى للنشرة النقدية لكتاب الفهرست لابن النديم، الذى أصدر طبعته المحققة الدكتور شعبان خليفة، ووليد محمد العوزة عن دار العربى، بالقاهرة، فى مجلدين يبلغان حوالى ألف وسبعمائة صفحة. إذا بصدور عمل ثان لنفس المحققين؛ هو دراسة بيوجرافية ببليوجرافية ببلومترية، وكشافات لكتاب طاش كيرى زادة «مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم» عن نفس الدار عام ١٩٩٣م. وأحسست بأن هناك مشروعاً متكاملاً لتناول الببليوحرافيا الإسلامية، باعتبارها إسهاماً متميزاً فى مجال المكتبات والمعلومات. ويصدق حدسى حين وجدت دراسة ثالثة للدكتور خليفة عن «فهارس الشيوخ: دراسة فى الببليوجرافيا الحيوية للعلماء المسلمين». فإذا معالم المشروع تكتمل وتتحول فكرة الدراسة إلى تحليل تلك الجهود العلمية الجادة التى تتوسل بمناهج العلم المعاصر فى دراسة تراثنا الببليوجرافى. وهو اتجاه يختطه المختصون كل فى مجال تخصصه لإبراز الجهود العربية الإسلامية داخل التخصص، فعل ذلك زكى نجيب محمود فى دراساته للتراث العربى خاصة فى ميدان الفلسفة، ونفس المحاولة يجتهد فى القيام بها شعبان خليفة فى دراسة مصادر الإنتاج الفكرى العربى، فيما يتعلق بعلم الببليوجرافيا.

وإذا استعرضنا جهود الدكتور خليفة فى مجال تخصصه طيلة الربع قرن الماضى وجدناها كثيرة ومتنوعة وتدور فى إطار: تاريخ المكتبات[١]؛ الفهرسة الوصفية للمكتبات[٢]، المواد السمعية البصرية والمصغرات الفيلمية[٣]، وأخيراً الجهود العربية الإسلامية فى مجال الببليوجرافيا وهى تبدأ بدراسته «الكتابة العربية فى رحلة النشوء والارتقاء»[٤] ثم أعماله المشار إليها فى الفقرة الأولى من هذه الدراسة، التى تعد بداية لاهتمام جديد، أو قل لتحول هام نحو تأصيل الجهود العربية الإسلامية من أستاذ متخصص يسعى لتطبيق مبادئ وأدوات ومناهج علم المعلومات على ما قدمه علماء العرب فى ميدان تخصصه.

وإذا توقفنا أمام أبحاثه الأخيرة التى تمثل تطوراً، أو قل تعميقاً لدراسة الببليوجرافيا العربية الإسلامية باستخدام المناهج الحديثة فى مجال المعلومات، وجدنا أنه يمثل اتجاهاً جديداً، يختلف من حيث المنهج والمنظور، وإن كان يتفق من حيث الغاية

والهدف مع اتجاه سائد تغلب عليه النية الطيبة أكثر من الموضوعية العلمية، وهو ما يطلق عليه اتجاه «إسلامية المعرفة». ويجب هنا أن ننبه القارئ إلى أن عمل شعبان خليفة لا يهدف إلى رد المنجز العلمى فى المكتبات والمعلومات إلى جهود سابقة لدى العلماء العرب المسلمين، ولكنه يهدف إلى دراسة هذه الجهود، وذلك بوضعها فى إطار تاريخ علم «الببليوجرافيا» مبيناً مكانتها، ودور العرب فى تطور هذا العلم، الذى ينبغى عليهم أن يساهموا فى تطويره مستقبلاً لا، أن يتغنوا بما أحرزوه فى الماضى.

وأول عمل يصادفنا هو تحقيقه ودراسته للفهرست لابن النديم دراسة بيوجرافية ببليوجرافية ببليومترية، فى مجلدين يضم الأول مع التحقيق الدراسة، ويضم الثانى الكشافات. ويحتاج هذا الجهد إلى قراءة متأنية وتحليل لما قدمه المحققان من أضواء كاشفة تعيد اكتشاف الفهرست من جديد رغم كثرة النشرات السابقة له.

ويتناول خليفة فى دراسته بفقراتها المتعددة، ابن النديم، موضحاً قلة المعلومات عنه. فلم يظلم التاريخ مؤلفاً كما ظلم ابن النديم، فالمعلومات عن هذه الشخصية العبقرية نادرة، ونستقيها بعد سلسلة معقدة من التحليلا والاستنتاجات الذهنية من كتاب الفهرست، ومن هنا فالإشارات القليلة التى يقدمها لنا عن هذه الشخصية التى يصفها «بالعبقرى» هامة جداً فى إبراز الجهد العلمى المتمثل فى التحليل والمقارنة والاستنتاج التى تتسم بهما الدراسة.التى لا تكتفى مثل غيرها بتقديم معلومات خام دون تحليل. يقول: «وتتجلى هذه العبقرية فى أنه وضع يده على أهمية وخطورة «الضبط الببليوجرافى» للإنتاج الفكرى منذ أكثر من عشرة قرون. كما تتجلى عظمة الفهرست فى أنه أول ثبت ببليوجرافى إقليمى شامل لما نشر فى العالم الإسلامى من كتب حتى نهاية القرن الرابع الهجرى. وهذا الثبت مرآة للثقافة والفكر الإسلاميين حتى وإن ضاعت أصولهما بفعل العوامل المختلفة» [ص٣].

ومن قبيل اجتهادات المحقق ما فعله بشأن تحديد تاريخ حياة ابن النديم حيث يشق طريقه بين التحليلات المتداخلة والمتضاربة فى ذلك، فلم يذكر أى من المصادر تاريخ ميلاده ولو على سبيل التقريب، وهو يميل إلى اعتبار ميلاده بين عامى ٣١٥ ـ ٣٢٠ هـ، ويرجح وفاته ـ بما ذكره ابن العسقلانى ـ فى ٤٣٨ هـ ١٠٤٧م [ص٧]. ومن هنا يستنتج أن ابن النديم عاش فى القرن الرابع الهجرى فى هذا المناخ الفكرى مما أثر تأثيراً عميقاً فى تكوينه العقلى والشخصى. ويعرض لجمع الفهرست منذ بدايته فكرة فى عقل صاحبه، حتى اتسع اهتمامه ونظم معلوماته فى كافة مجالات العلم. ويذكر لنا مصادر جمع المادة العلمية مستقاة من الكتاب نفسه(٥). ويخرج من ذلك بأن المعلومات التى وردت بالفهرست:

أ ـ إما أن يكون ابن النديم قد قرأها بنفسه ونقلها عن المصادر المكتوبة.

ب ـ أو يكون قد شاهدها وخبرها بنفسه ومن ثم عبر عنها بطريقته.

ج ـ أو يكون قد سمعها وغربلها وسجلها. [ص١٧].

وتتجلى القدرة التحليلية المنطقية، بالإضافة إلى تطبيق مناهج الدراسة الببليوجرافية فى مناقشته لقضية بداية ونهاية تأليف الفهرست. وهو يرى أن بداية «تسويد» الفهرست هى عام ٣٧٧ هـ، لكن الاختلاف بين العلماء فى سنة الانتهاء. ويرى أن هذا الخلاف يمكن حسمه بتطبيق مفاهيم علم

الببليوجرافيا التطبيقى على هذه القضية، فهذا العلم يتطلب من الببليوجرافى وضع حدود زمنية وحدود تاريخية، وحدود شكلية، وحدود لغوية وحدود موضوعية للقائمة الببليوجرافية، والالتزام بتلك الحدود عند التنفيذ الفعلى لها، والحد الزمنى يقصد به زمن الإقفال فى أية قائمة يختلف حتماً عن تاريخ النشر، أو تاريخ الإصدار، ومن الطبيعى أن يسبقه، والذى يقرأ الفهرست يدرك أن عام ٣٧٧ هـ هو تاريخ الإقفال، وليس بالضرورة تاريخ الانتهاء من العمل. وهذا يفسر لنا ـ كما يقول ـ وجود معلومات هامة بالكتاب، بعد هذا التاريخ [ص٢٠] وينتهى من هذه المناقشة إلى أنه لم يصل إلينا من الفهرست إلا المسودة فحسب. «فقد استغرق العمل عدة أعوام أخرى (بعد هذا التاريخ) وقد ترك فراغات فى النص لكى يستكملها فيما بعد أو يستكملها غيره إذا وجد هذه المعلومات الناقصة وقد استكمل بعضها بالفعل وبقى معظمها إلى يومنا هذا دون استكمال» [ص٢١].

ويذكر لنا بلغة العالم المتخصص وأحكامه الدقيقة فى الفقرة الثالثة المتعلقة بـ «مخطوطات كتاب الفهرست» جميع مخطوطات الكتاب، موضحاً أنه لا توجد حتى الآن ـ مخطوطة واحدة كاملة فى أى مكان من العالم من الفهرست كتلك التى كانت متداولة فى سوق الكتب على أيام ابن النديم، وقد تبعثرت أشلاء هذا المخطوط فى مناطق متفرقة فى العالم فى فترات مختلفة بحيث يمكن القول بأنه لاتوجد طبعة كاملة كذلك من هذا الكتاب. ويعدد لنا المخطوطات المختلفة له، إلا أن الأهم من هذا التعديد الوافى الدقيق من وجهة نظره هو ما يدلى به من ملاحظات حول هذه المخطوطات بعد أن يصفها لنا وصفاً دقيقاً. فهو يذكر لنا ثلاث عشرة نسخة:

أولها نسخة تشستربيتى رقم ٣٣١٥، التى يستنتج بعد وصفها عدة استنتاجات منها أن هذه النسخة أهديت إلى أحمد باشا الجزار الذى أوقفها على مدرسة النور الأحمدية بعكا، وأنها انشطرت إلى شطرين ذهب أحدهما إلى بريطانيا واستقر فى تشستربيتى، **والثانى** رحل إلى تركيا ليستقر فى المكتبة السليمانية باسطنبول؛ وهى مخطوطة (شديد أو شهيد) على باشا وتحمل رقم ١٩٣٤ وهى تكمل المخطوطة الأولى. ويذكر لنا مخطوطة كوبر بريللى الأولى وتحمل رقم ١١٣٥ فى مكتبة كوبريللى باسطنبول، والثانية وتحمل رقم ١٣٤ بنفس المكتبة. وفيما يتعلق بمخطوطة تونك فى خانقاه السعيدية فى راجستان بالهند؛ وهى قطعة صغيرة تشتمل على أربع وأربعين ورقة مملوءة من الوجه والظهر ـ يوضح أن قيمة هذه القطعة فى كونها تشتمل على معلومات غير موجودة فى المخطوطات المتاحة. وعليها عنوان هو فوز العلوم «وهذا هو وجه القيمة فى تلك المخطوطة» [ص٢٥]. وبعد أن يشير إلى مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٤٥٧، ورقم ٤٤٥٨ يذكر مخطوطة فينيا رقم ٣٣ التى توجد ضمن مخطوطات هامر ـ برجستول، والتى تشتمل على قطعة من المقالة الخامسة حتى نهاية الكتاب، إلا أنها تفتقر إلى جزء من المعلومات الهامة عن المعتزلة فى المقالة الخامسة. ثم مخطوطة فينيا رقم ٣٤ ضمن المجموعة السابقة. ومخطوطة ليدن رقم ٢٠، وليدن رقم ٢١: ويحكم عليهما بأنهما أقل أهمية ولا يمكن التعويل عليهما كثيراً فى تحقيق الكتاب. ومخطوطة طنجة، وهى حديثه جداً ويعتبرها المحققون غير ذات أهمية، وقد كتب عنها فى مجلة معهد المخطوطات[٦]. وأخيراً مخطوطة تيمور؛ وهى قطعة صغيرة من أول المقالة الخامسة، وقد نشرت

كاستدراك على طبعة فلوجل فى المجلة الألمانية Die Kinder des Margen Londes. ١٨٨٩. والحقت ببعض الطبعات العربية.

وتساعد الملاحظات النقدية المختلفة التى ذيل بها حديثه عن المخطوطات فى تحقيقه الجديد. ولكن ماذا عن طبعات الفهرست السابقة؟ هذا هو موضوع الفقرة الرابعة من دراسته؛ يقول: «من الطبيعى ونحن لانجد نسخة كاملة لأية مخطوط ليس لنا أن تتوقع طبعة كاملة من الفهرست، ومن هنا سيظل الكتاب فى حاجة إلى إعادة النظر فيه تحقيقاً ونشراً» [ص٢٧].

ويعرض لطبعات الفهرست المختلفة التى بدأت بنشرة المستشرق الألمانى جوستاف فلوجل G. Flugel الذى نشر الفهرست فى مجلدين بمدينة ليبزج عام ١٨٧١، ١٨٧٢ والذى نقلت عنه عدة نشرات عربية فيما بعد[٧]. وترجمة بيارد دودج Bayard Dodge الذى يعتمد عليه المحقق اعتماداً كبيراً[٨] ـ إلى الانجليزية، وهى الترجمة الوحيدة للفهرست إلى أية لغة غير العربية [ص٢٩]. معنى ما سبق أن النشرات العربية الأربع اللاحقة على نشرة فلوجل والتى اعتمدت عليه تعد نشرة واحدة، مع الاختلافات التى أشار إليها المحقق؛ لذا فهو يناقش عمل فلوجل «الذى وقع فى بعض أخطاء التحقيق والقراءة»، إلا أن موضوعية المحقق تجعله يرى «أن عمل فلوجل يظل شامخاً». وبعد نصف قرن من الزمان تأتى طبعة دودج مكملة لطبعة فلوجل حيث اكتشف الأخير المخطوطتين الرئيسيتين اللتين لم تتوافرا لطبعة فلوجل. ويذكر لنا ثلاث نشرات تالية للفهرست هى: نشرة رضا ـ تجدد (طهران ١٩٧١)[٩]، ونشرة د. ناهد عباس (الدوحة ١٩٨٥)[١٠] ونشرة مصطفى الشويس (تونس ١٩٨٥)[١١].

ومع كثرة المخطوطات التى يذكرها لنا والطبعات التى يشير إليها فإن ما وصلنا من الفهرست «مسودات» فقط يقول: «وفى قناعتى الشخصية بعد دراسة ببليوجرافية وببليومترية متأنية أن ما وصلنا من فهرست ابن النديم من مخطوطات ـ ومن ثم الطبعات التى بنيت عليها ـ ليس سوى المسودة فقط لهذا الكتاب ولم تصلنا المبيضة أو النسخة النهائية منه» [ص٣٠]. ويقدم لنا العديد من الشواهد على ذلك[١٢].

وتبدأ الدراسة الببليومترية من الفقرة السادسة التى يتناول فيها المحقق «الاتجاهات العددية والنوعية للإنتاج الفكرى للفهرست». فالهدف الأول من هذا العمل هو حصر وتسجيل ووصف الكتب التى ورقت فى العالم الإسلامى باللغة العربية سواء كانت مؤلفة أو مترجمة. وقد اقتضى الحصر الحديث عن المؤلفين أنفسهم، كما تطلب تصنيف الإنتاج الفكرى معالجة فروع المعرفة البشرية وتأطيرها ومحتويات كل فرع. ومن هنا جاء الفهرست: (١) قائمة ببليوجرافية إقليمية مشروحة (٢) معجم تراجم (٣) دائرة معارف.

وقد بلغ عدد الكتب التى حصرها ابن النديم نحو ثمانية آلاف وخمسمائة (٨٣٦٠ عنواناً على وجه الدقة) أما عدد المؤلفين فيدور حول الفى مؤلف (٢٢٢٨ على وجه اليقين). وفى مجال المترجمات وبعد عمليات إحصائية تحليلية يخرج بنتائج حاسمة، فقد دارت الكتب المترجمة (المنقولات) حول ٦٢٢ كتاباً بنسبة تقترب من ٧,٥٥٪ [ص٤٠]. ولما كانت الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وأحياناً من العربية إلى الفارسية تمثل ظاهرة فى الإنتاج الفكرى المنشور فى تلك الحقبة التى يغطيها الفهرست، فإن المحقق يقف أمام الاتجاهات الموضوعية واللغوية وقفه

أساسية فى هذه الدراسة الببليومترية. فيعرض للموضوع، والإنتاج الكلى فيه، والمترجمات واللغة المترجم منها إلى العربية، والنسبة المئوية للموضوع واللغة.

ويلاحظ المحقق أن اتجاهات التأليف فى هذه الحقبة كان نحو التخصص الموضوعى العميق، مع وجود المؤلفات الموسوعية، وهى لا تزيد عن مائتى كتاب [ص٤٨] وأن من النادر أن يكون للكتاب عنوان فرعى يفسر العنوان الرئيسى، وأن مؤلفات تلك الحقبة كانت فى الأعم الأغلب تأليفاً خالصاً إذ تقل فيه الشروح والاختصارات والاختيارات والتجريدات [ص٥٠]. ويشير إلى تمييز ابن النديم فى عمله بين الإصدارات المختلفة للكتاب الواحد وهو ما نسميه فى أيامنا بالطبعات.

ويتناول المسئولية الفكرية كما جاءت فى الفهرست (الفقرة السابعة) فقد عبر ابن النديم عن المسئولية الفكرية فى كتابه بنحو ثلاثين مصطلحا بينها فروق جوهرية فى معظم الأحيان، ويستعرض المحقق هذه المصطلحات ويمثل لها من واقع الفهرست ببيان الفارق بينها وهى: التأليف، التصنيف، الرواية، الاختيار، الاختصار، النقض [الرد]، الشرح، التعاطى، المجالس، المحاسبات، المناظرات، الإلحاق [التتمة، الوصل، الزيادة] الانتحال، الصنعة، العمل، الحفظ، السماع، القراءة، الأخذ، التفسير، النقل، الإصلاح، الحكاية، المكاتبات، الاستدراك، التبصرة [الحاشية]، الانتزاعات، الأمالى، الجمع، التجريدات، ويفيض فى شرحها وبيان الفروق بينها [ص ٥٦ ـ ٧٣].

ويقف وقفة متأنية هامة ـ تظهر لنا الفارق بين دراسة المتخصص والدراسة العامة ـ أمام (أفاق الاتصال العلمى ووسائله كما صوره الفهرست) فى الفقرة الثامنة من الدراسة. حيث يوضح لنا أن حرص ابن النديم على ذكر سلسلة الرواية لكل مؤلف وكل كتاب بذكر الرواة هى الأصل الذى تطورت عنه الكشافات والإشارات الببليوجرافية فى عصرنا [ص٧٤]. ويبين تطور الرواية فى عصر التدوين من طور نقل المعلومات من جيل إلى جيل، إلى طور الدرس والتحصيل وأصبح مصطلح الراوية عند ابن النديم مرادفاً للعالم والباحث فى أيامنا [ص٧٥]. ويوضح خليفة أن التدوين هو الوسيلة الثانية من وسائل الاتصال الفكرى، ويذكر أن أنماط المسئولية الفكرية التى شاعت فى عصر ابن النديم تمثل منافذ هامة للإتصال الفكرى آنذاك. وأن ابن النديم قد وضع أيدينا على ظاهرة من أجلّ ظواهر الاتصال الفكرى وهى المدارس الفكرية فى الفترة التى غطاها. وأن الوراقة كانت كذلك من هذه الوسائل.

أما فيما يتعلق بـ «تنظيم الفهرست ومنهج ابن النديم فى تأليفه» فهو موضوع الفقرة التاسعة حيث يعرض لنا المحقق بنية العمل والفكرة الرئيسية التى توجهه. فالكتاب يقسم المادة العلمية إلى عشر مقالات ـ وهى مسألة تذكرنا بالتصنيف العشرى[١٣] ـ وكل مقالة إلى فنون، وهذه الفنون لا تستوى عدداً بل إن المقالة العاشرة لم تقسم، وقد بلغ مجموع الفنون ـ إذا حسبنا المقالة العاشرة فناً واحداً ـ ثلاثاً وثلاثين فناً. ويستخلص المنطق الذى يكمن وراء ذلك التقسيم بالنسبة إلى فكر هذا العصر. وهو «التمايز والتداخل» وإن كان لم يستخدم هذا التعبير بين العلوم الإسلامية والعلوم الخاصة بالحضارات الأخرى، والتى كان يعبر عنها بـ «علوم العرب، وعلوم العجم» «علوم الإسلام، وعلوم الأوائل» «العلوم النقلية والعقلية» فالمقالات الست الأولى تمثل الفكر العربى الإسلامى البحت. والمقالات الأربع الأخيرة تمثل الفكر الأجنبى. «ولقد كان ابن النديم واعياً تماماً عندما عالج

الديانات السماوية فى المقالة الأولى وعالج الديانات الوضعية فى المقالة التاسعة حتى لا تختلط تلك الاعتقادات الوضعية بالديانات السماوية [ص٧٨].

ويؤكد خليفة فى الفقرة العاشرة على تميز «الأسلوب الببليوجرافى فى الفهرست» فالحقيقة التى يلمسّها أى باحث للعمل هى «أن الحس الببليوجرافى عند ابن النديم كان أكثر من مرهف إذا قيس بالظروف الفكرية والبيئة العلمية والحقبة التاريخية التى عاشها مؤلف الفهرست».

فقد حاول المؤلف تصوير الكاتب وكتبه قدر الطاقة والظرف وكان واعياً بأنه يقدم ببليوجرافيا حيوية.

ويلجأ المحقق فى معالجة الأسلوب الببليوجرافى بالفهرست إلى استخدام المصطلحات العصرية والمعايير الحالية من أجل الكشف عن الحاسة الببليوجرافية عند ابن النديم. من خلال عشرة عناصر هى على التوالى: المدخل ـ البيانات البيوجرافية عن المؤلف ـ بيان العنوان ـ بيان المسئولية ـ بيان النسخة (الإصدارة) ـ بيانات النسخ ـ التوريق (عدد الأوراق والإيضاحات) ـ المحتويات ـ الملاحظات والتعليقات، ترتيب عناصر الوصف. ويطبق ذلك على عمل ابن النديم.

ويناقش مسألة الفراغات فى كتاب الفهرست، والتى تبلغ مائتين وستين فراغاً، وهى الفراغات التى تركها ابن النديم عن عمد بقصد استيفائها بعد ذلك وهى ما جعلت محققنا يرجح أن ما وصلنا من مخطوطات الفهرست ومن طبعات ليس إلا المسودة فقط.

إن ما سبق يقودنا مع المحقق إلى التساؤل عن مكان الفهرست فى شبكة الببليوجرافيات» وهو ما يفعله فى الفقرة الأخيرة من دراسته التى تضيف بعداً معاصراً متخصصاً للتحقيق. إن الفهرست ليس كتاباً عادياً وليس مجرد ببليوجرافية. وتلك ليست مبالغة من المحقق المدقق، بل هو حقبة كاملة من حقب الفكر الإسلامى، بل إنه أجلّ هذه الحقب وأعظمها على الإطلاق، فالفهرست يحصر ويسجل ويصف الإنتاج الفكرى الذى أفرزته الثقافة الإسلامية والعقلية الإسلامية طوال القرون الأربعة الأولى من الهجرة. وهى كذلك تمتد فى فكر القرون التى قبلها وفكر الروافد العديدة التى استقت منها. ويحاول خليفة أن يتلمس موقع الفهرست فى درجات السلم الببليوجرافى؛ هل هو ببليوجرافية حصرية شاملة أم مختارة انتقائية؟ جارية أم راجعة؟ رسمية أم تجارية، إقليمية أم عالمية؟ مجردة أم ببليوجرافية حيوية مشروحة؟ ويؤكد على أننا من الناحية العامة أمام ببليوجرافية حيوية مشروحة [ص١١٠] ويناقش طبيعة العمل وينتهى إلى أن الفهرست هو: ببليوجرافية حصرية إقليمية راجعة، رسمية حيوية مشروحة.

ولقد اتخذت أساساً لببليوجرافيات أخرى منها «مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم[١٤] و«كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون» لحاجى خليفة[١٥]. كما أنه سد فراغاً كبيراً عند إعداد الببليوجرافيات الحديثة مثل «تاريخ الأدب العربى» لبروكلمان و«تاريخ التراث العربى» لسيزكين.

ويشغل نص الفهرست محققا ٧١٤ صفحة فى المجل الأول مع فهرس بالمحتويات. بينما يخصص المحققان المجلد الثانى للكشافات. وقد قصدا من هذه الكشافات ـ وهى الجهد الإضافى الذى يحسب لهما مع الدراسة الأساسية وضبط النص ـ أن يحللا الإنتاج الفكرى الذى سجله ابن النديم فى فهرسته. كما قصد أيضاً أن تستخدم على حدة،

وأن تكون عملاً قائماً بذاته، وقد وزعت على ثلاثة زوايا هى: أولاً: كشاف المؤلفين، ثانياً كشاف العنوان، ثالثاً كشاف الموضوع وهذا النهج جديد على فهرست ابن النديم بالنسبة للطبعات السابقة وقد قسم الكشاف الأول إلى قسمين: مؤلفون سجل الفهرست لهم كتباً، ومؤلفون لم يسجل لهم كتيبا. وهو يضع تحت كل مؤلف مسرداً بكتبه متبوعاً بالمقالة والفن وليس بالصفحات. وتحت كل عنوان فى كشاف العنوان اسم المؤلف متبوعاً بالمقالة والفن. وتحت الموضوع وضع الكتب التى تعالج هذا الموضوع متبوعة كذلك بالمقالة والفن وقد رتبت مداخل الكشافات الثلاثة هجائياً متبعاً فى هذا الترتيب القواعد التى وردت فى موسوعة الفهرسة الوصفية للمكتبات ومراكز المعلومات.

نحن بإزاء تحقيق من نوع فريد، يقوم فيه المحقق بخبرته التخصصية بدراسة شاملة عن العمل وتزويده بجهد إضافى هو تقديم كشافات تسهل للباحث والقارئ الوصول إلى المعلومات التى يريدها ليس فقط فى النسخة التى قدمها المحققان بل. وأيضاً فى غيرها من نسخ مما يضفى أضواء جديدة على جهود ابن النديم الببليوجرافية.

والعمل الثانى الذى يقدمه لنا المحقق هو «مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم لكاش كبرى زادة: دراسة بيوجرافية ببليوجرافية ببليومترية وكشافات، الصادر بالقاهرة ١٩٩٣ فى حوالى ألف صفحة[١٦] وهو لا يهدف أن يحقق الكتاب الذى حقق مرتين من قبل فى الهند ومصر. إنما الأساس هو دراسة النص باعتبار العمل حلقة هامه فى الببليوجرافيا الإسلامية. لقد قام باستخلاص البيانات الببليوجرافية المتعلقة بالكتب التى وردت بالنص، وجردها من السياق العام مبقياً على خطه التصنيف التى وردت فى العمل، مع ثلاثة كشافات هجائية للمؤلفين والعناوين والموضوعات، ومثلما فعل فى الفهرست لابن النديم فهذه الكشافات لا تشير إلى الصحفة، بل إلى قسم التصنيف.

ويقدم فى الفقرة الأولى من تمهيده، دراسة بيوجرافية، محدداً لنا مصدره فى تناول حياة طاش كربى زادة التى ترجم لها المؤلف نفسه باسهاب فى كتابه «الشقائق النعمائية فى علماء الدولة العثمانية» الذى اعتمد عليه كل من كتب عنه، ويلاحظ المحقق التردد الشديد من جانب المؤلف فى الكتابة عن نفسه والتواضع الجم فيما كتب. ويتابع تعليم الرجل وما تلقاه من علوم، ثم عمله بعد ذلك مدرساً وقاضياً. ثم يحدد لنا مؤلفاته التى بلغت نحو أربعين عملاً بخلاف ما لم يصل الينا ذكره. وأهم هذه الأعمال جميعاً «الشقائق النعمانية...» و«مفتاح السعادة..». ويعرض تاريخياً للقرن الذى عاش فيه طاش كبرى زادة، العاشر الهجرى، السادس عشر الميلادى؛ الذى يمثل عنفوان الدولة العثمانية وفتوحاتها وتوسعاتها العظيمة [ص ١٨ ـ ٣٤].

وما يهمنا هنا هو ما يعرضه خليفة فى الفقرة الثالثة من دراسته عن مكونات الكتاب. فالمؤلف قسم كتابه إلى أربع مقدمات وسبع دوحات، أما المقدمات فتدور حول العلم والتعليم؛ الأولى فى بيان فضيلة العلم والتعلم والتعليم، والثانية فى شرائط المعلم ووظائفه، والثالثة فى وظائف المعلم، والرابعة فى بيان النسبة بين طريقين، طريق النظر، وطريق التصفية. وهذه المقدمات هى بلورة ـ كما يخبرنا خليفة ـ شاملة لمنهج التربية والتعليم عند المسلمين طوال عشرة قرون. ثم قسم المؤلف مادته العلمية إلى سبع دوحات؛ الأولى فى بيان العلوم الخطية (الكتابة)، والثانية فى علوم تتعلق بالألفاظ والثالثة

علوم باحثة عما فى الأذهان من المعقولات الثابتة، والدوحة الرابعة فى العلم المتعلق بالأعيان. والمدقق فى «مفتاح السعاد...» يجده نوعاً من التاريخ الفكرى، أو دليلاً بالمصادر العامة مما هو معروف فى الجامعات الأوربية فى القرن السابع عشر، فقد سبق زادة الجامعات الأوربية بنحو قرن من الزمان. وتلك الملاحظة التى يشير إليها المحقق تستحق كثير من الدراسة المتأنية لبيان العلاقة بين الجهود العربية الإسلامية وبدايات النهضة الأوربية فى المجالات المختلفة وخاصة فيما يتعلق بالجهود الببليوجرافية. يعطينا خليفة اضاءة تاريخية. بما حدث فى الغرب. فقد نشأ علم الببليوجرافيا فى أوربا الحديثة فى القرن ١٧ م مرتبطاً بما عرف فى الجامعات الأوربية» بالتاريخ الفكرى Historia literaria الذى كان يستعرض فيه الاستاذ تطور العلوم المختلفة ومحتوياتها، وأهم المؤلفات فى كل مجال، وأهم المؤلفين الذين برزوا فيه. كما كان كل أستاذ فى المقرر الواحد يبدأ بعرض عام لأهم المصادر، وأهم المؤلفين كتمهيد أو مدخل للمقرر «معرفة المصادر أو التعريف بالكتب Notitia librorum وكثيراً ما كان هذا التعريف ينشر مستقلاً عن المادة العلمية نفسها على شكل أدلة دراسية أو ما نطلق عليه فى أيامنا أدب الموضوع subject literature [ص٣٩] وهذا يجعلنا نتوقف أمام ما قدمه زادة، وهو تاريخ للفكر الإنسانى وتأصيل له، فقد وضع لنا عملاً فى «الببليوجرافيا الإسلامية» وإذا كان العمل بداية وأساس لما عرف وتطور فى الغرب باسم علم الببليوجرافياً فإن الدكتور خليفة يجتهد فى البحث عن أصول هذا العلم عند المسلمين فى علم الحديث. فالعمل كما يرى هو فى الأصل فهرس شيوخ تطور بعد ذلك ليصبح دليلاً دراسياً، أو دليلاً بالإنتاج الفكرى أو بالمصادر الدراسية ففهارس الشيوخ ـ التى سيفرد لها دراسة مستقلة ـ خرجت من بطن علم الحديث، إلا أنها أمتدت إلى جميع العلوم الأخرى. ويذكر لنا المحقق طرق هذه الفهارس وهى: السماع، القراءة، والمناولة، والأجازة، والمكاتبة، والوصية، والاعلام، والوجادة، «إن فهارس الشيوخ تحدد أمام كل كتاب الطريقة التى درس بها.. وهذا فى الواقع عمل ببليوجرافى لا يتطرق إليه شك» [ص٤١].

أما فيما يتعلق بمخطوطات، وطبعات، وتجريدات، ومختصرات الكتاب فهو موضوع الفقرة الخامسة حيث يبين لنا خليفة أن هناك نسختين خطيتان بمصر؛ أحداهما فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٧ معارف عامة، والثانية فى مكتبة الجامع الأزهر تحت رقم ٢٤٥ معارف عامة كذلك. ويصف لنا هاتين المخطوطتين، ويشير إلى طبعتاه، الأولى نشرت بحيدر أباد الدكن فى ثلاث مجلدات وهى وأن احتوت على شروح وتعلقيات إلا أنها خلو من الكشافات، وأقرب ما تكون إلى النسخة الأصلية التى طبعت منها، أما الثانية التى أصدرها عبد الوهاب أبو النور وكامل بكرى، فقد صدوت بالقاهرة ١٩٦٨ فى أربعة مجلدات خصص الأخير فيها للكشافات، «وهذه الطبعة كما يحكم عليها ـ أقرب إلى النشر منها إلى التحقيق» [ص٤٧].

أما عن تجريدات الكتاب فأولها ما قام المؤلف نفسه باختصارها عام ٩٦٨ هـ وذكرها جرجى زيدان باسم «مدينة العلوم» ومنها نسختان خطيتان بدار الكتب، الأولى برقم جـ ٥٧١٣، والثانية برقم ٤١ فى المكتبات. ويصفهما لنا، وهناك تجريدة أخرى قام بها خليلى الرومى الحنفى صولانى زادة، منها نسخة خطية بمكتبة الجامع الأزهر تحت رقم ٨٤ معارف عامة. ويعتبر كامل كبرى وعبد الوهاب أبو النور أن كتاب حسن صديق خان ابجد العلوم هو اختصار ثالث لمفتاح السعادة وإن كنا نرى أثر

ابن خلدون ضخم للغاية على الكتاب بحيث أن دراسة مقارنة توضح دين ـ ليس فقط ـ أبجد العلوم، بل ربما مفتاح السعادة للمقدمة. ويرى خليفة ان التجريدات السابقة تجنح نحو تجريد المادة العلمية من أسماء الكتب والمؤلفين لكى تصبح موسوعة مركزة فى موضوعات العلوم فقط دون الجوانب الببليوجرافية والبيوجرافية. بينما ينصب عمله (الحالى) فى الأساس على العكس من ذلك، ففى سعيه لبحث الببليوجرافيات العربية القديمة يهدف إلى إحياء الجانب الببليوجرافى والبيوجرافى فقط، وليس مجرد استخلاصه من الموضوعات وتجريده من المادة العلمية فحسب، بل وتحقيقه وخدمته من وجهة نظر علم المعلومات المعاصر. فهو يقدم «تجريده من نوع مختلف يخصص للحديث عنها الفقرة السادسة من دراسته [ص ٤٨ ـ ٤٩]. أما الفقرة السابعة فموضوعها هو الدراسة الببليومترية العامة وهى الإسهام الذى يقدمه لنا الأستاذ المتخصص لإلقاء الضوء على أهمية العمل الذى نحن بصدده. بحيث يمكننا القول إن الجانب الهام من خدمة النص الببليوجرافى فى عمل خليفة وزميله يكمن فى دراسة الاتجاهات العددية والنوعية للإنتاج الفكرى الذى قدمه صاحب مفتاح السعادة، والذى استخلصاه فى تجريداتهما له وهما يوضحاه على الوجه التالى:

حصر كبرى زادة فى عمله ٢٥٧١ كتاباً، و ١٠٨٣٠ مؤلفاً، وكانت نسبة التكرار سواء فى المؤلفين أو الكتب ضئيلة للغاية. ويلاحظا أن الإنتاج الفكرى يركز فى الطرف الأول، أى فى الدوحات الستة الأولى، أما الطرف الثانى فلم يسجل سوى عشرة كتب، وتسعة مؤلفين فقط. وقد بلغ عدد العلوم فى الدوحات الستة ٣١٥ علماً. (الأولى ٩ علوم، الثانية ٤٥ علماً، الثالثة ٥ علوم، الرابعة ١٢٨ علماً، الخامسة ٧ علوم، السادسة ١٢٢ علماً). [راجع الجدول ص٥٨] وتفصيلاته ص ٥٩ ـ ١٢١. ونظراً لأن المفردات والمؤلفين تم توزيعها توزيعاً مصنفاً وإتماماً للفائدة أعاد خليفة توزيع الإنتاج الفكرى على الموضوعات مرتبة ترتيباً هجائياً مستخدماً قائمة رؤوس موضوعات خاصة حتى يعمد من يريد معرفة الكتب التى وردت فى موضوع بالذات إلى هذا الموضوع مباشرة، قدمها فى جداول مفصلة وجعلها جزءاً من دراسته الموضوعية للإنتاج الفكرى الوارد فى مفتاح السعادة [ص ١٢٢ ـ ١٥١].

ويسعى خليفة فى الفقرة الثامنة إلى بيان إنتاجية المؤلفين الذين ورد ذكرهم فى مفتاح السعادة محاولاً إكمال جهد طاش كبرى زادة الذى لم يهدف إلى حصر وتسجيل ووصف كل الإنتاج الفكرى العربى الإسلامى إلى عصره، كذلك لم يسع إلى حصر كل الإنتاج الفكرى لأى مؤلف من المؤلفين الذين ذكرهم داخل العلوم وإنما ذكر أهم الكتب التى ألف المؤلف. [راجع صفحات ١٥٢ ـ ١٩٨]. ومن هنا قارن جهد الأستاذ المعاصر بما زود به من مناهج حديثة وتملك لأدوات البحث الببليوجرافى يكمل عمل طاش كبرى زادة ويضعه فى سياقه من تطور علم الببليوجرافيا الإسلامية وهى المهمة التى بدأها بتحقيق كتاب الفهرست لابن النديم ويكملها فى دراسته لفهارس الشيوخ وهى موضوع الفقرة التالية.

وتختلف دراسته «فهارس الشيوخ: دراسة فى الببليوجرافيا الحيوية لعلماء المسلمين عن دراستيه السابقتين فإذا كان تحقيقه ودراسته «للفهرست» لابن النديم، ودراسته وتجريده «لمفتاح السعادة ومصباح السيادة» لطاش كبرى زادة عملين تطبيقان يستخدم فيهما مناهج الدراسة الببليومترية ومفاهيم

علم الببليوجرافية على عملين محددين لمؤلفين محددين، فإنه فى دراسته عن «فهارس الشيوخ» يقدم فتحاً جديداً لميدان يغطى فترات طويلة فى التاريخ الفكرى الإسلامى لعدد كبير من العلماء والأعمال، لم تدرس من الناحية الببليوجرافية من قبل مع أهميتها الكبرى فى الكشف عن إنجاز العلماء المسلمين فى هذا الميدان، وفى القاء أضواء على الحياة والإنتاج الفكرى لهؤلاء الأعلام.

يعرض لنا د. خليفة فى أربع فقرات خطته فى الدراسة، حيث يبدو أن ما قدمه لنا فى «فهارس الشيوخ: دراسة فى الببليوجرافيا الحيوية لعلماء المسلمين» ما هو إلا تمهيد لعمل ضخم يتناول هذه الفهارس. حيث يعرض فى الفقرة الأولى المفاهيم والتعريفات، ثم غايات وأهداف وأهميات فهارس الشيوخ. وبعد ذلك طرق الاتصال العلمى بين علماء المسلمين كما تكشف عنه فهارس الشيوخ، ثم أنواع الفهارس وفئاتها، وأخيراً محتويات ومعلومات فهارس الشيوخ، ورغم أهمية هذه الفهارس فإنه لم تخط بالضبط الببليوجرافى الذى تستحقه ـ كما يخبرنا الباحث ـ كما أن تلك الفهارس التى يقدر عددها بنحو ثلاثة آلاف فهرس لم ينشر ويحقق منها سوى عدد محدود للغاية، وهى فى حاجة إلى مزيد من رعاية الباحثين وجهدهم [ص١٢]. ومن هنا فهو ـ وهذا ما ننتظره منه ـ يعكف على تحليل ودراسة هذه الأعمال التى تعد كما يخبرنا بداية الجهد الببليوجرافى الإسلامى». ويمكننا القول أن هذه الفهارس كانت بداية لمولد علم الببليوجرافيا عند المسلمين» [ص١٠٢].

لقد كانت فهارس الشيوخ فى الواقع جزءا من منهج البحث العلمى الذى درج عليه العلماء المسلمون حيث كان العالم ينسب الفضل لأهله ويسند تكوينه العلمى إلى كل من ساهم فى هذا التكوين. ويعد ذلك كما يرى د. خليفة قمة الأمانة العلمية حيث لم يكتفى العالم المسلم بأسناد المعلومات إلى مصادرها فيما يكتب فقط بل كان ينسب كل خلية فكرية فى عقله إلى المصدر الذى اعتمد عليه فى ذلك. وتعطى تلك الفهارس معلومات عن الكتب والأساتذة فى آن واحد، وهى ما تعرف فى أيامنا بـ «الببليوجرافيات الحيوية». ويبين لنا خليفة الأسماء والمصطلحات الآخرى التى عرفت بها هذه الأعمال مثل: الأثبات (= ثبت) البرامج (= برنامج) المشيخات (= مشيخة) المعاجم (= معجم) المسلسلات (= مسلسل) التقييدات (= تقييد) والاسنادات (= سند). وهو يعرف بهذه الأسماء بالعودة إلى كتب اللغة ليوضح لنا أصل المصطلح اللغوى ومعناه والمقصود به وانتشاره سواء فى الشرق أو الغرب.

فهو يعرف الفهرست اعتماداً على ما جاء لدى ابن منظور فى «لسان العرب» ولدى الزبيدى «تاج العروس» والمعجم الوسيط لمعجم اللغة العربية وأيضاً على ما جاء فى كتاب الكتانى (عبد الحى): فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات [ص ٨٩، ٩٠ وص ١٢٧] فهو «أى الفهرس» الكتاب الذى يجمع فيه العالم شيوخه (أساتذته)، وأسانيده (الكتب التى درسها) وما يتعلق بذلك. ويعرف (الثبت) الذى يثبت فيه العالم المسلم الكتب التى درسها على أساتذته وترجمه لهم، وهى ترادف الفهرس. و«البرنامج» مثل الفهرست مصطلح فارسى عرب من «برنامة»، وهو فى الأصل: الورقة الجامعة للحساب. وقد استخدمه ابن خلدون فى المقدمة للدلالة على معنى الفهرس. ويتضح فى حديثه عن المشيخة اسلوبه فى تحديد المفاهيم فهو يبين أن المصطلح ظهر أولاً فى القرن الثانى الهجرى

ليطلق على الكتاب أو الجزء من الكتاب الذى يجمع فيه المحدث أسماء شيوخه ومروياته عنهم. ويبين أنها اشتقت من «شيخ» ويبين معناها اللغوى والاصطلاحى، وأنها تطورت لتطلق على الكراريس التى يسجل فيها العالم شيوخه وما درس عليهم من مؤلفات. ويعرف المعجم ـ الذى ظهر بعد المشيخة، ويجمع على معجم ومعاجيم ـ بنفس الطريقة إلا أنه يلتصق به أنه يرتب أسماء الشيوخ ترتيباً هجائياً بحتاً. والمسلسل الذى يعتمد على ذكر سلسلة الشيوخ الذين رووا الكتاب المدروس حتى نصل به إلى مؤلفه الأصلى. ويوضح أن المسلسلات أكثر ما ترتبط بروايات الحديث النبوى. وكذلك الاسناد، الذى استخدم على نطاق واسع فى القرن الأول للهجرة. وأخيراً التقييد وإن كان استخدامه قليلاً نسبياً فى عناوين الببليوجرافيات التى تناولها بالبحث.

ويقدم لنا عدة ملاحظات هامة من خلال دراسته لألف ومائتى ببليوجرافية حيوية إسلامية. مثل انتشار مصطلحات: ثبت، معجم، مشيخة، أستاد تقييد فى المشرق العربى بينما أنتشر فى المغرب والأندلس مصطلحات فهرست ومشتقاتها، وبرنامج ومسلسل. وإن دراسة هذه الفهارس توضح طريقتين لكتابتها، الأولى أن يكتبها صاحب الفهرس بنفسه كتاريخ لحياته العلمية (التخريج الذاتى) وتلك هى الطريقة الغالبة وتصل نسبتها فى بحثه إلى ٨٠,٧٪ والطريقة الثانية هى أن يقوم شخص آخر ـ التلميذ أو الابن أو الأخ ـ بإعداد الفهرس وتوصف هذه الطريقة بالتخريج الغير ذاتى، وتصل نسبتها إلى ١٩,٣٪ ويعطى لنا أمثلة لكل من الطريقتين (ص٩٣).

ويبين لنا أن فكرة إعداد فهارس الكتب قد خرجت من بطن علم الحديث فرواة الحديث فى عصر التواتر والمشافهة كان عليهم أن يسندوا ما يروون من أحاديث إلى سلسلة من الرواة حتى يصلوا بها إلى من سمعها من الرسول (ص) مما يعطى هذه الروايات ثقة وثقلاً. ثم انتقلت بعد ذلك من اسناد مجموعة من الأحاديث إلى تسجيل كل المرويات فى جميع فروع المعرفة الإنسانية التى تداولها المسلمون. واعتبرت عملية الاسناد هذه جزءاً كبيراً من الأمانة العلمية ومنهج البحث العلمى عند علماء المسلمين.

ويتساءل خليفة ـ ليوضح لنا غايات وأهداف وأهميات فهارس الشيوخ ـ لماذا كانت هذه الفهارس؟ ولماذا حرص طلاب العلم على تأليفها بعد أن شبوا عن الطوق وأصبحوا هم بدورهم علماء وأساتذة؟ ويوضح أن الهدف من الفهرس هو الضبط الببليوجرافى لمصادر معلومات العلم الذى تلقاه العالم انطلاقاً من الحديث الشريف «هلك أمتى فى العصبية والقدرية والرواية من غير ثبت». ويبين أن هذا الحديث لم ينسحب فقط على رواية الحديث بل على سائر العلوم.

ويعتمد على ما جاء فى هذه الفهارس فى مقدماتهم فى شرح الدوافع التى دفعتهم إلى تأليفها والهدف منها ويستشهد بأمثلة بين ذلك بما جاء فى مقدمة فهرست أبو عبد الله بن غازى (ت ٩١٩ هـ): «التعلل برسوم الاستاد بعد انتقال المنزل والناد»، وابن الجوزى «مشيخة بن الجوزى»، والقاضى عياض: «الغنية فهرست شيوخ القاضى بن عياض»، والنعال البغدادى «مشيخة البغال البغدادى والوادى آشى «برنامج الوادى آشى»، وابن عطية «فهرس ابن عطية» والنجيبى «برنامج النجيبى». ويحدد د. عبد العزيز الإهوانى، فى دراسته كتب برامج العلماء فى الأندلس سبباً ـ بالإضافة لما ذكره أصحاب هذه الأعمال ـ هو

شعور الوفاء بين العالم وشيخه وحنين العالم إلى أيام الدرس والطلب وهو نفس ما جاء فى مقدمة برنامج أبو الحسن السرعينى الذى يستهشد به د. خليفة فى بحثه (ص ٩٧ ـ ٩٨).

وهو يتساءل ـ بعد بيانه أهداف وغايات فهارس الشيوخ ـ عن القيمة الحقيقية لها والأهمية التى تستقيها منها؟ ويستنتج من دراسته لهذه الأعمال النتائج الست التالية.

ـ أنها تصور طرق تحصيل العلم ومراحله وسبل التواصل العلمى من جيل إلى جيل فى الزمان، ومن شخص إلى شخص بالجيل الواحد فى المكان.

ـ وأنها تكشف عن تطور حركة الفكر ونشاط التأليف فى شتى مجالات المعرة الإنسانية عند المسلمين عبر القرون. ويستشهد ـ بتحليل مضمون ـ ثبت البلوى لبيان الموضوعات التى تطرق إليها وهى: العلوم الدينية والشرعية، علوم اللغة والأدب، العلوم الإجتماعية [الجغرافيا، الرحلات، التاريخ ـ السير]، العلوم العلمية [الطب، الصحة، الصيدلة ـ الزراعة] العلوم الطبيعية أو البحتة، والرياضيات ثم العلوم الفلسفية. وهى العلوم التى انتشرت دراستها فى عصر البلوى (ت ٩٣٨ هـ) وقد عكس لنا فهرسه ذلك. وكذلك فإن فهرسة ما رواه ابن خير الاشبيلى (٥٠٢ ـ ٥٧٥ هـ) يعكس لنا الموضوعات التى درسها فى القرن السادس الهجرى.

معنى ذلك أن فهارس الشيوخ تعتبر ـ بالنسبة له كمتخصص ـ مصدراً خصباً للوقوف على مجالات المعرفة التى سادت فى فترة معينة فى العالم الإسلامى، كما تكشف أيضاً عن كساد سوق بعض المجالات فى فترات معينة. ويخرج من ذلك أن هذه الفهارس إذا ما تتبعناها من القرن الثانى وحتى القرن الحادى عشر الهجرى توضح أن سوق دراسة (علوم القرآن) و(علوم الحديث) لم تكسد فى يوم من الأيام لأنها كانت المجالات الأساسية فى الدراسة والعلم.

ـ وتكشف هذا الفهارس بوضوح عن أهم مراكز العلم فى العلام الإسلامى فى فترة زمنية معينة، إذ تحفل بذكر الأماكن التى كان الطلاب يتلقون فيها العلم ويلقون فيها أساتذتهم، وهى لم تكتف بذكر أسماء المدن بل تحدد المواضع داخل تلك المدن التى كانت دور للعلم. وعلى ذلك فهى تعتبر مصدراً لدراسة مراكز العلم ومدارسه فى العالم الإسلامى.

ـ كما تشكف عن الكتب الهامة فى فترة زمنية محددة، كذلك الكتب الهامة التى امتدت أهميتها والحاجة إليها على مساحة زمنية واسعة. [ص١٠٢].

ـ وتوضح هذه الفهارس العلماء الأفذاء فى المجالات المختلفة فى فترات زمنية معينة ـ وتقدم معلومات بيوجرافية عن هؤلاء الشيوخ ومكانة كل منهم ونبذة عن حياتهم الشخصية والعلمية ودراستهم وتكوينهم.

ـ وأن هذه الفهارس نفسها كببليوجرافيات حيوية كانت مجالاً للدرس والبحث مثل المجالات الأخرى وكان الطلاب يدرسونها، فابن خير الاشبيلى قد درس ضمن ما درس أربعا وسبعين فهرساً.

هذه النتائج المتعلقة بأهداف وغايات فهارس الشيوخ نقلة هامة، يتناول فيها «طرق الاتصال العلمى بين علماء المسلمين» وذلك موضوع الفقرة الثالثة من دراسته.

وهنا أيضا يقدم لنا خليفة المصدر الإسلامى لطرق الاتصال العلمى وهى «الرواية» فقد كان المسلمون يطلقون على العملية التعليمية هذا

الإصطلاح، الذى يشير إلى أخذ العلم أو حمله وتحمله من الأستاذ الشيخ إلى الطالب التلميذ. ويوضح الشروط التى حددها العلماء لحمل العلم (روايته) وتأدية العلم (تقديمة للآخرين). فمن الشروط الأولى: توافر حسن النية، أى الجدية والرغبة فى الإستفادة الحقيقية والعمل بما يستفيد المرء ويتعلمه منه. والعناية بتعلم اللسانيات لئلا يلحن المرء أو يصحف فى الكلام، واختيار الثقة من الأساتذة. أما شروط التأدية فمن بينها: تحرى الصدق، وتوقى التدليس فى الرواية، وتحريض الطالب وترغيبه فى العلم.

ويحدد لنا الطرق المختلفة لرواية العلم وهى ثمانية:

أولاً: «السماع» وكان الطريقة الغالبة فى القرون الأولى للهجرة؛ وذلك للاعتماد على الذاكرة أكثر من القراءة والكتابة. فالسماع ـ كما عند ابن خير الاشبيلى ـ هو أعلى مراتب أخذ العلم، وربما تجئ هذه الطريقة فى المقام الأول للإتصال العلمى بسبب قدمها. ويعتمد فى بيان أهمية هذه الطريقة على الأحاديث الشريفة مثل قول رسول الله (ص): «تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم».

ثانياً: «القراءة» (أو العرض) حيث يقوم الدارس بقراءة الكتاب بين يدى الأستاذ الشيخ، والأخير يتابع ويشرح ويفسر ويسأل والدارس يفهم ويجيب.

ثالثاً: «المناولة» وهى أن يقدم الشيخ لتلميذه نصاً مكتوباً يدا بيد ويطلب منه أن يروى عنه. والمناولة بهذا الشكل معناها أن النص صح لدى الأستاذ، وأن الطالب مخول منه فى تدريسه أو الفتيا بما جاء فيه، أو على الأقل تعلمه والعمل به.

رابعاً: «الإجازة»: وهى السماح أو الأذن المكتوب من الشيخ إلى الطالب برواية أو حمل المادة العلمية عنه وتدريسها، أو الفتيا بما جاء فيها وهى «كتابة أهل العلم بالعلم إلى الآخرين». وللأجازة شروط حتى تصح من بينها أن يكون المجيز عالماً أى متخصصاً بما يجيز به ثقة فى مجاله وروايته معروفا بالعلم، وأن يكون المستجيز كذلك من أهل العلم. ومن الواضح أنه لا ينبغى لطالب كائناً ما كان أن يُدّرس أو يفتى بغير اجازة لأن ذلك يقع باطلاً، وأن من الجائز الحمل أو الرواية أو الأخذ بالطرق الأخرى وحدها.

خامساً: «المكاتبة» وهى أن يقوم الأستاذ بكتابة مادة علمية بخطه بناء على طلب من أحد تلاميذه وقد تكون الكتابة مجردة من الاجازة أى بهدف التلقى أو مقرونة بالاجازة مثل قوله «أجزتك ما كتبت لك أواليك أو نحو ذلك».

سادساً: «الوصية» وهى أن يوصى الشيخ بكتاب لشخص ما بروايته أو تدريسه، وذلك عند موته أو سفره. وقد جوّز بعض العلماء الوصية وشبهوها بالمناولة والاعلام. وإن كنت اعتبرها فرع من الاجازة وليست مستقلة بذاتها ولنا دعوة إلى ذلك.

سابعاً: «الاعلام» وهو اكتفاء الشيخ باخطار تلميذه بأن كتاب كذا هو من مروياته من سماعه أو من تأليفه دون أن يحجزه فى روايته وتدريسه.

ثامناً: «الوجادة» وهى أن يقف التلميذ بنفسه أو يجد دون مساعدة من شيخ على كتاب بخط عالم مشهور يعرفه وباسناده فيأخذه ويدرسه ويرويه عنه من غير سماع أو أيا من الطرق السابقة، وهى أقل درجات الاتصال العلمى وهناك أيضاً الرحلات العلمية التى تكتسب طابعاً فهرسياً خاصة حين يركز الرحالة على العلماء الذين عرفهم والتقى بهم.

والحقيقة أن ترتيب الباحث لهذه الطرق يخبرنا صراحة وضمناً انه ترتيب حسب الأهمية فالطريقة

الأولى «السماع، أعلى مراتب أخذ العلم، وربما تجئ فى المقام الأول بسبب قدمها. وحين يعرض للطريقة الثانية «القراءة» يخبرنا بإن الملاحظ فى فهارس الشيوخ أن السماع يأتى غالباً أولاً ثم يليه القراءة. و... و... والوجادة فى الرأى بعض العلماء كما يقول هى أقل درجات الاتصال العلمى. ولنا أن نسأل هل الأختلاف بين هذه الطرق اختلاف فى الدرجة أو أختلاف فى النوع، أو على أقل تقدير طبيعة وغاية كل طريقة مما يمزها تمييزاً جوهرياً عن الاخرى. فعلى سبيل المثال نجد أن كل من السماع والقراءة تختص بعملية التعليم أو الأخذ وهى بالنسبة للطالب مرحلة الأخذ والتلقى، وأيا كانت أولوية أحدهما على الآخر فكلاهما تسمية لطريقة أخذ أو حمل العم بينما تأتى «المناولة» و «الاجازة» كمرحلة ذات طبيعة مختلفة متقدمة على المرحلة السابقة وفيها يكتمل نضج الطالب ووصوله إلى درجة عالية من العلم تتيح له الحصول على الشهادة «الاجازة» أو السماح له بالانتقال من مرحلة الطالب إلى مرحلة أعلى يحق له فيها بدوره أن يقوم بالتعليم، ثم تأتى الوصية كفرع من الاجازة، والاعلام نوع من المكاتبة، فكلاهما اجازة بطريقة مختلفة ثم تأتى أخيراً الوجادة أو التعليم الذاتى وهى ـ وإن كانت مضادة أو على الأقل مختلفة عن السماع والقراءة إلا أن لها نفس الهدف والغاية، أى تحصيل العلم لكن دون معلم. والحقيقة أنه ربما تتمايز أو تتداخل بعض هذه الطرق مع بعضها الآخر. كما نجد فى كتب الرحلات التى يشير إليها المؤلف مثل رحلة القلصاوى ورحلة أبى طاهر أحمد السلفى الأصبهانى «معجم السفر». وإن كان الأخير مطبوعاً وليس مخطوط.

ويضف الفهارس المختلفة التى جمعت لديه فى الدراسة إلى ثلاث فئات أساسية حسب طريقة معالجة المادة العلمية بها وهى:

[١] أن يرتب الطالب فهرسه على الشيوخ التى درس عليهم، بحيث يكون المدخل هو اسم الشخص فيترجم له بياناته البيوجرافية، وذكر ما يتحلى به استاذه من صفات، وخصائصه العلمية والمكان والزمان الذى التقى فيه به. ثم يسرد علينا بعد ذلك ما قرأه عليه من كتب وما أخذه عنه من علم. ومعجم الأعمال التى تحمل فى عناوينهاكلمة معجم تقع فى هذه الفئة لأنه يقصد بها سير الشيوخ وبياناتهم البيوجرافية أكثر من المرويات وبياناتها البيليوجرافية.

ويناقش الدكتور الاهوانى خليفة فى نقده لهذه الطريقة التى يشوبها تكرار بعض الكتب التى تكون قد درست على أكثر من شيخ، ولا يرى فى ذلك عيباً بل فيه فائدة لأن هذا التكرار يلقى الضوء على أهمية كتاب بعينه يرويه أكثر من شيخ [ص١١٣].

وداخل هذا المدخل تتفاوت طريقة ترتيب الشيوخ تفاوتاً كبيراً كما فى الطرق التالية.

ـ أن يرتب الشيوخ ترتيباً هجائياً كاملاً فيما بينهم، وعلى هذا النمط غالبية فهارس هذه الفئة مثل معجم شيوخ ابن زادان ت ٣٨١ هـ، وابن جميع الصيداوى (ت ٤٠٢ هـ).

ـ أن يرتب الشيوخ ترتيباً هجائياً مع بعض الاستثناءات كأن يبدأ أولاً بالمحمديين تيمنا بصاحب الرسالة (ص) أو البدء بالأقارب، أو الأساتذة الأجلاء ثم يبدأ بعد ذلك فى ترتيب الآخرين ترتيباً هجائياً متصلاً.

ـ أن يرتب الأساتذة ترتيباً زمانياً طبقاً لتاريخ وفاة كل منهم أو طبقاً لتاريخ الأخذ عنهم أو الألتقاء بهم. ويفيدنا هذا الترتيب فى دراسة التسلسل الزمنى للتكوين العلمى للطالب.

ـ أو أن يرتب الشيوخ على موضوعات الدراسة فيبدأ بمن قرأ عليهم القران الكريم وعلومه ثم الحديث والتاريخ والأنساب وهكذا فى جميع المجالات التى تعلمها.

ـ أن يرتب الشيوخ جغرافيا حسب مكان اللقاء والدرس، وهذه الطريقة تبرز الأماكن التى تعتبر مراكز للعلم ونوع هذا العلم الذى جاد فيها.

ـ أن يصطنع الفهرس عدة طرق من الطريق السابقة مما يعتبره البعض ترجمة للشيوخ على غير ترتيب محدد، ومنها برنامج ابن فرثون ت: ٦٦ هـ) الذى خلط بين الترتيب الجغرافى الزمنى والموضوعى.

[٢] أن يرتب الطالب عمله على الكتب التى درسها فالأساس أو المدخل هو اسم الكتاب المدروس ويغلب على الفهرس البيانات الببليوجرافية ويأتى فى المرتبة التالية البيانات البيوجرافية. وعلى العكس من الفئة الأولى فإن الطالب قد يضطر إلى ذكر الشيخ الواحد مرتين أو أكثر حسب الكتب التى درسها على يديه. ويتم فى الغالب توزيع الكتب على مجالات موضوعية حسب أهميتها أو تدرجهم فى دراستها، يأتى فى المقام الأول القرآن الكريم نصاً ثم علومه ثم فى المقام الثانى الحديث وعلومه ومصطلحه، ثم علوم السيرة والأنساب والتاريخ ثم علوم الشريعة، فاللغة والشعر والأدب، ثم العلوم الدنيوية.

[٣] وتخرج الفئة الثالثة بين الفئتين السابقتين إذ ترتب المفردات بأسماء الشيوخ تارة أو فى قسم من الأقسام وأسماء الكتب تارة أخرى أو فى قسم آخر. وهذه فئة قليلة يدلل عليها بفهرس الوادى آشى (ت ٧٤٩ هـ).

ويتناول فى الفقرة الأخيرة محتويات ومعلومات فهارس الشيوخ بالتحليل موضحاً أن نوعية الفهرس وطموح الطالب ورغبته فى العلم وباعه فيه، وعدد الرحلات التى قام بها لتحصيل العلم لها دخل كبير فى هذا الصدد. من حيث عدد الشيوخ الذى يأتى عليهم كل طالب فى فهرسه، ومن حيث عدد الكتب التى يسجلها. فأكبر الفهارس سجل نحو ٢٤٠٠ شيخ ونحو ألفى كتاب «المعجم الكبير لابى سعد السمعانى» واصغرها سجل اثنى عشر شيخاً وأربعين كتاب (برنامج ابن أبى الربيع). وهو يلفت النظر إلى أن ضخامة عدد الشيوخ والمداخل قد تكون نتيجة أن عدد كبير من المرويات قد تكون أحاديث نبوية فردية رواها الطالب عن عدد كبير من المحدثين. وقد يتضخم عدد الشيوخ العنعنة والاسناد إذ يذهب بعض الطلاب إلى اعتبار حلقات السلسلة الواحدة حتى المؤلف الأصلى جميعاً من شيوخه وليس فقط مجرد الشيخ المباشر الذى درس عليه.

وقد اختار د. خليفة عشرة من الفهارس واحصى عدد الشيوخ الذين درس عليهم الطالب مؤلف الفهرس وعدد المفردات التى درسها وبأى طريقة للدرس كانت وأيا كانت نوعية المفردات. وذلك كى تكون عينة على حجم المفردات فى الفهارس العادية وقدم لنا جدولاً بها يتضح منه عدد الشيوخ وعدد الكتب على النحو التالى:

برنامج ابن أبى الربيع الشيوخ (١٢)، الكتب (٤٠) فهرس ابن عطية الشيوخ (٣٠) الكتب (١٢٣) برنامج المجارى الشيوخ (٣٤) الكتب (١٦٨) مشيخة النعال البغدادى الشيوخ (٥٢) الكتب (١٠٨) مشيخة ابن الجوزى: الشيوخ (٨٩) الكتب (٤٦) فهرست القاضى عياض: الشيوخ (٩٨) الكتب (٢٢١) برنامج النجيبى: الشيوخ (٢٢٤) الكتب (٣١٨) برنامج الوادى آشى: الشيوخ (٢٨٩) والكتب (٢٣٨) ثبت

البلوى: الشيوخ (٣٣٤) الكتب (٥٧٥) فهرسة ابن خير الاشبيلى: الشيوخ (١٠٢٠) الكتب (١٤٤١).

ويبين لنا أن محتويات كل منها تختلف باختلاف الهدف منها وإن كانت هناك أرضية مشتركة تجمعها. فكلها لابد وأن تقدم معلومات بيوجرافية عن الشيخ وببليوجرافية عن الكتاب الذى درس والسند حتى المؤلف الأصلى. ويعطى لنا أمثلة مختلفة لبيان ذلك. [ص ١٢٤ ـ ١٢٦]. حيث يستشهد «بكتاب النظر فى أحكام النظر» لابن القطان، و«كتاب اصلاح الحروف» لابن مفرح القاضى، وكتاب «شمائل النبى» للترمذى. وهناك أمثلة أخرى للفهارس التى اعطت اهتماماً متوازناً لكل من ترجمة الشيخ من جانب والمرويات أيا كان سندها من جانب آخر فجمع بين الاتجاهين السابقين ومنها ثبت أبى جعفر البلوى (ت ٩٣٨ هـ) الذى خص القلصاوى أول شيوخه بغرناطة ومروياته عنه نحو ثلاثين صفحة [ص١٢٥] كما يعطى لنا نماذج للفهارس التى اقتصرت على طريقة واحدة من طرق الدراسة وهى «الاجازة» [ص١٢٦] أو التى تقتصر على أساتذة الطالب فى بلد واحد مثل فهرس أبى طاهر الاصبهانى فى (ت ٥٧٦ هـ) «معجم شيوخ بغداد» أو بعض الفهارس التى اقتصرت فقط على الشيخات وحدهن مثل فهرس ابى القاسم ابن هبة الله بن عساكر (ت ٥٧١ هـ) «معجم النسوان» الذى ذكر فيه الشيخات اللائى أخذ عنهن العلم. بالإضافة إلى فهارس الشيخات مثلك مشيخة أم محمد زينب بن يحيى بن عبد السلام، وأم محمد وجيهة بنت على الاسكندرانية، ومشيخة شهدة الكاتبة وغيرها:

إستقصاء كامل وجهد دقيق ودراسة غير مسبوقة فى مجالها بإستثناء الجهد الذى قدمه د. عبد العزيز الأهوانى عن «كتب برامج العلماء فى الأندلس». وعمل د. خليفة كما يتضح من سياقه بداية لجهد أكبر لرصد الببليوجرافياً الحيوية عند المسلمين، وهى أحد فروع علم الببليوجرافياً وذلك من أجل قضية أساسية يعلن لنا عنها، وهى «إن البحث العلمى الموضوعى والمنصف يؤكد أن المسلمين قد عرفوا علم الببليوجرافيا بكل فروعه قبل أوربا بعشرة قرون على الأقل حيث لم يتبلور هذا العلم فى أوربا قبل القرن الثامن عشر بينما تبلور عند المسلمين مع بدايات الثامن الميلادى (الثانى الهجرى)». وبهذا الجهد نستطيع أن ننتقل من البحث التاريخى فى علم الببليوجرافيا عند المسلمين إلى الإسهامات المعاصرة لهم لدى الباحثين المعاصرين أمثال د. شعبان وزملائه.

الهوامش والمراجع

١ ـ ترجم د. شعبان خليفة منذ فترة طويلة دراسة الفرد هيسيل تاريخ المكتبات، نشرة دار الثقافة القاهرة ١٩٧٣.

٢ ـ كتب د. خليفة عدة دراسات حول الفهرسة الوصفية للمكتبات منها

ـ الفهرسة الوصفية للمكتبات (المطبوعات والمخطوطات) دار المريخ، الرياض ١٩٧٩

ـ الفهرسة الوصفية للمكتبات (المواد السمعية البصرية...) مكتبة العلم، جدة ١٩٨٠

ـ الفهرسة الموضوعية للمكتبات ومراكز المعلومات، العربى، القاهرة ١٩٨٠

ـ موسوعة الفهرسة الوصفية للمكتبات ومراكز المعلومات دار المريخ، الرياض ١٩٩١

٣ ـ د. شعبان خليفة: المصغرات الفيلمية فى المكتبات ومراكز المعلومات، العربى، القاهرة، ١٩٨١، والمواد السمعية البصرية والمصغرات الفيلمية دار المريخ، الرياض ١٩٨٥.

٤ ـ د. شعبان خليفة: الكتابة العربية فى رحلة النشوء والارتقاء، العربى، القاهرة، ١٩٨٩.

٥ ـ وهى:

١ ـ مهنة الوراقة التى اتاحت له مصادر ثلاثة يستقى منها المعلومات.

٢ ـ المكتبات الرسمية التى كانت تقتنى مجموعات ضخمة من المجلدات، مثل بيت الحكمة، ومكتبة الحكم (٢٥٠ ـ ٢٦٦ هـ).

٣ ـ فهارس المكتبات والببليوجرافيات السابقة عليه مثل فهارس الشيوخ وبرامج القراء.

٤ ـ فهارس المؤلفين.

٥ ـ أهل الثقة والذكر.

انظر د. شعبان خليفة، وليد محمد العوزة: الفهرست لابن النديم، دراسة ص ١٥ ـ ١٧ ببليوجرافية، ببليومترية وتحقيق ونشر، العربى، القاهرة ١٩٩٠ المجلد الأول.

٦ ـ انظر مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثانى ص ١٧٩.

٧ ـ وقد نشر العمل بعد ذلك عدة نشرات هى: نشرة المطبعة الرحمانية القاهرة ٢٩ / ١٩٣٠، اعتمدت على نشرة فلوجل مع حذف الحواشى والتعليقات وإضافة القطعة التى سقطت من نشرة فلوجل عن المعتزلة، وهى الاستدراك الذى نشرته المجلة الألمانية ١٨٨٩ عن نسخ تيمور باشا. وقامت المكتبة التجارية بطبع نفس النشرة السابقة كما هى، مع وضع القطعة الناقصة فى موضعها فى أول الفن الأول من المقالة الخامسة. وقامت دار المعرفة بيروت بإعادة طبع نفس الطبعة كما هى عام ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨. وقامت مكتبة خياط بيروت ١٩٦٤ بنشر نفس طبعة فلوجل عن طريق التصوير.

٨ ـ يعتمد المحقق فى دراسته اعتماداً كبيراً على بيارد دودج ويشير إليه إشارات عديدة ويشيد بعمله وباحكامه راجع صفحات: ٤، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٩، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١١٩.

The Fihrist of al - Nadim: a tenth - century survey of muslim Culture ed. and trans. by Bayard Dodge. New York, Columbia Uni. press, 1970. 2 vals.

٩ ـ ابن النديم: الفهرست: رضا تجدد، طهران ١٩٧١. والطبعة محققة بعناية، وقد الحق بالنص كشافاً بأسماء الأعلام العرب والفرس.

١٠ ـ ابن النديم: الفهرست: د. ناهد عباس عثمان، دار قطرى بن الفجاءة قطر ١٩٨٥. والعمل هو اطروحتها للدكتوراة من جامعة اكستر بانجلترا.

١١ ـ ابن النديم: الفهرست: مصطفى السويس، تونس، الدار الوطنية ١٩٨٥.

١٢ ـ يدلل خليفة بكثير من الشواهد أن ما وصلنا من الفهرست هو المسودة ـ ومن هذه الشواهد: الفراغات الكثيرة التى تركها ابن النديم لاستكمالها فى وقت لاحق.

ـ وجود معلومات وبيانات فى غير موضعها الذى أراده المؤلف.

ـ وجود معلومات غير مرتبة بنفس نص المؤلف. مما يؤكد أنه لم يعد النظر فى كتابه، ولم يعد تنسيق وتنظيم البيانات التى ادرجها على عجل.

ـ وجود عدد كبير من الأخطاء الاملائية والنحوية والأساليب غير المستقيمة كلها تؤكد السرعة المتعلقة بالمسودات.

ـ عدم وجود آية إشارة إلى تدريس كتاب الفهرست على أيام ابن النديم مما يدل على أنه لم يصل إلى صياغته النهائية بحيث يمكن تدريسه.

ـ كان ابن النديم يذكر فى كتابه عن بعض المؤلفين إنه يحيا فى زماننا هذا وبعد سطر واحد يذكر أنه توفى سنة كذا، وتكررت هذه الظاهرة فى كتابه، ولو أعاد النظر فى كتابه لالغى عبارة ويحيا إلى وقتنا هذا.

١٣ ـ يرفض المحقق فكرة تأثير عمل ابن النديم على تصنيف ديوى العشرى راجع كتابه ص ١١٤ (الدراسة).

١٤ ـ انظر دراسته البيوجرافية الببليوجرافية الببليومترية عن هذا الكتاب فى مجلدين، العربى، القاهرة ١٩٩٣. وانظر دراستنا عنه فى كتابنا تصنف العلوم عند العرب، دار النصر، القاهرة ١٩٩٤.

١٥ ـ انظر عنه كتابنا السابق الفصل الثالث.